الفصل الثانى

المسألة الشرقية

obeikandl.com

obeikandl.com

تصارع الإمبراطوريات فى سوريا

فى ختام القرن الثامن عشر، بدأ الإنجليز الحرب مجددًا عند شاطئ عكا، بعد أن خسرها الصليبيون قبل ذلك بخمسة قرون. وعلى مر ثلاثين قرنًا من الحروب ظلت عكا هى القلعة الحصينة التى تحمى طريق الساحل إلى فلسطين. وفى ١٢٩١م طُرد آخر الأوروبيين بواسطة الأتراك وانضمت فلسطين والأراضى المقدسة إلى الإمبراطورية التركية.

والآن، وفجأة وبعد خمسة قرون من الغفوة الإسلامية، قصفت المدمرات البريطانية هذا الميناء الذى دافع عن أسوار المماليك بلا أمل، بينما حاصر الجيش الأوروبى المدينة برًا. وفى هذه المرة، ويا للعجب! دافع البريطانيون عن القلعة ولم يغيروا عليها. فقد كانوا يدافعون مع الأتراك ضد العدو الأوروبى، ولم تكن مدافعهم مصوبة إلى أسوار عكا وإنما إلى جيش نابوليون تحت أسوار عكا.

وعادت جغرافية فلسطين تلعنها، فقد كانت على طريق الهند حيث كان يرغب نابوليون فى فرض سلطانه، ومنع عدوه بريطانيا من الاستمتاع بخيرات الشرق، وأن يحكم بلا منازع إمبراطورية الإسكندر. وكانت كل من مصر وسوريا أساسية لخططه، وبالمثل كان من الضرورى بالنسبة لبريطانيا إبقاء هاتين الدولتين خارج براثنه. وكان الجيش الذى اصطحبه نابوليون معه إلى مصر هو الجيش نفسه الذى

أعده سلفا لغزو بريطانيا. وحدا التردد - الذى اعترى هتلر لاحقًا تجاه عبور المانش فى ١٩٤٠م - بناپوليون شرقًا على أمل طعن بريطانيا من الخلف، وهى نفس الحيلة التى لجأ إليها هتلر فيما بعد.

وفى الواقع فإن التطابق شديد بين حملة هتلر وحملة ناپوليون إلى الحد الذى يجعل المرء يعتقد أنهما شىء واحد. وفى كلا العصرين حامت الاستراتيچية حول فلسطين. وفى أبسط لغة يمكن القول بأن أى طاغية متضخم - غير إنجليزى بالطبع - يحاول الاستحواذ على سيادة أوروپا، يجب الحيلولة دونه والسيطرة على الشرق الأوسط، وهذا حقيقى فى أيام ناپوليون كما هو فى أيام القيصر، وأيام هتلر، وكما هو الحال الآن(*). فيجب أن تبقى المنطقة من القاهرة إلى القسطنطينية خارج يد أى طامع فى حكم العالم، مخافة أن يستطيع تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة خاصة ويغلق الطريق إلى الشرق الأقصى. ومن الناحية الاستراتيچية، يجب أن تخضع فلسطين الصغيرة لما يخضع له الشرق الأوسط، بغض النظر عمن يحكمها. فقد كانت فى يد الأتراك ثم فى يد بريطانيا ثم إسرائيل. ولا يهم أيهم - بالنسبة لما يختص بالسياسة - طالما لم تخضع للسلطة المسيطرة على أوروپا.

(*) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٦م، ثم أعيد طبعه ١٩٨٤م، ثم ٢٠٠١م.

وبالرغم من التبسيط، فهذه هى القضية المعروفة فى أوساط القرن التاسع عشر الديپلوماسية باسم «المسألة الشرقية». وقد كان للاسم مذاق ذو طابع شبه ڤيكتورى قديم، فيفكر المرء فى القلاع والحصون والمطارنة والأحداث والمعاهدات السرية والقياصرة والباشوات والباكوات والصفوة و«ديزرائيلى- Disraeli» وقناة السويس، وفى وقت ما من الحرب العالمية الأولى، خبا المصطلح مع خبو بريق العادات الديپلوماسية للقرن التاسع عشر. واليوم ممثلون جدد على المسرح - النفط والعرب وإسرائيل والولايات المتحدة - ولكن الحبكة ما زالت واحدة، مثلما كانت بريطانيا قد زرعت لافتة «ممنوع الدخول قطعيًا» على حدود الشرق الأوسط فى القرن الثامن عشر. منذ مائة عام، أخذت السياسة أسلوب الحفاظ على الإبقاء على الإمبراطورية التركية المريضة وحمايتها ضد أى قادم جديد، وبعد الانهيار النهائى للإمبراطورية فى ١٩١٨م، قررت انجلترا إحلال نفسها محل الأتراك للسيطرة على المنطقة مباشرة أو من خلال دمى عربية. وظل هذا الأسلوب ناجحًا حتى الحرب العالمية الثانية، والتى بعدها لم يعد شىء كما كان. **أما الآن فنحن أقرب من اللازم من الأحداث من أن نحكم من ستكون القوى القادمة فى الشرق الأوسط؟، هل هى القومية العربية أم روسيا؟ أم الصهيونية العالمية؟**(*). وعلى أى حال فإن اختصاص المؤرخ هو الماضى وليس المستقبل.

(*) أظن الجواب معروفًا تمامًا لفترة العشرين سنة الماضية.

ولم يكن نابوليـون هو العـدو الأول الذى اضطر انجلتـرا لاتخـاذ موقف بشأن الشرق الأوسط وإنما روسيا. ويمكننا تتبع نمط غير منقطع من عام ١٧٨٠م لروسيا وهى تحـاول السيطرة على تركيا، وليس على فلسطين تحديدًا. فإذا هبط ظل الكرملين على الحدود التركية، أسرعت أوروبا تجاه الشرق كما لو كانت شاعرة ببـرودة وظلمة مخيفة. ويتتابع الملحقـون بين السفارات وتتـلاقى الوفود جيـئة وذهابًا كمـا لو كانت أسراب نمل. وإذا ما أحصينا الحـوادث والحروب والمجالس والمعاهدات والتسويات المتعلقـة بعلاقات القوى مع الإمبراطورية التـركية فى القرن التاسع عشر، لوجـدناها استغرقت مناورات ديبلوماسيـة وحيلاً وطاقة أكثر من أى قضية أخرى متعلقـة بالسياسة الخارجية. ويرمز هنا القرن التاسع عـشر إلى الفترة مـن ١٨١٥م إلى ١٩١٤م، وتعتبر الفـترة من ١٧٨٩م إلى ١٨١٥م مدخلاً له، وهى فترة الثـورة الفرنسية ونابوليون والباستيل وواترلو.

وكان مـستقبل فـلسطين - التى سترى عـودة إسرائيل - يرسم فى أثناء صراع القوى الاستراتيجى المتعلق بالشـئون التركية. وحاموا حول الحدود كورثة غيورين ينتظرون احتضار العم الغنى، فأينما تكن الجيفة تحلق النسور. ولكن جـيفة تركـيا كانت عنيـدة وظلت تتنفس دون أن تستطيع منع النسور الجائعة من نهش أطرافها القصية.

وكان قرار انجلتـرا الخاص بحتميـة أن تكون النسر الأول فى الشرق

الأوسط رد فعل لطموح إمبراطورة روسية «كاثرين العظيمة - Cathe-rine the Great». وكانت كاثرين العظيمة قد هزمت تركيا فى إحدى الحروب التى كان يدخلها ملوك القرن الثامن عشر دومًا، فأصرت على امتلاك جزء من الأراضى التركية والمعروفة للمؤرخين الديبلوماسيين بـ «إقليم أوكزاكوف - Oczakoff Disrrict»، وبذا حجبت معناها عن القارئ الحديث حتى يكتشف بمساعدة الأطلس أن أوكزاكوف هى الأوديسا، وأن كاثرين ترمى إلى ميناء دافئ على البحر الأسود. وشعر «بيت - Pitt» الذى يمكن أن يكون - أو لا يكون - أعظم سياسى فى انجلترا، أن عليه الحيلولة بين انجلترا والدخول فى الصراع القارى، وكان يكن لكاثرين نفس الاحترام الذى يكنه رجال السياسة اليوم لخلفائها فى الكرملين، فأصر على ألا تحوز مرامها، وغامر بمستقبله السياسى وبالحرب حين طلب أن تغادر كاثرين ميناء البحر الأسود. وفشل لعدم التفاف الرأى العام حوله، وبالرغم من فوزه بتأييد البرلمان، حيث قال الرأى العام لتعليل رفضه الحرب: «مكان بعيد لا نعرف شيئًا عنه». كما قال نفيل تشامبرلاين عن تشيكوسلوفاكيا. واضطر بيت للتراجع وترك كاثرين تحتفظ بالأوديسا. ولكنه لفت نظر بريطانيا لانتهاج سياسة عدم السماح بالإغارة على أى من ولايات الحكم التركى.

ولم يعجب ذلك أغلب الإنجليز، بسبب ما أسماه بروك كراهيتهم لهذه الإمبراطورية المقززة. ولكن لم يكن لديهم خيار سوى تأييد الحكم التركى السيئ أو السماح للمنافسين بإغلاق طريق بريطانيا إلى

الهند. واختار بيت، بالرغم من أنه حتى ذلك الوقت كان الإنجليز يفضلون أى شخص سوى الأتراك. وفى حرب سابقة بين روسيا وتركيا عام ١٧٧٠م، كتب أبو بيت «إيرل تشاثام - Earl of Chat-ham» لزميل: «تعرف سيدى اللورد أننى روسى النزعة، وأعتقد أن العثمانيين سيسقطون معهم بيت بوربون فى أثناء سقوطهم». ولكن فى العشر سنوات التالية ومع خسارة المستعمرات الأمريكية، تغير الاتجاه الكامل للاستعمار البريطانى، واتجه شرقًا ليركز على الهند والطرق المؤدية إليها، ومنذ ذلك الحين التزمت بريطانيا بإفساح طريقها إلى الشرق الأوسط عن طريق تعزيز تماسك الدولة العثمانية ضد القياصرة والناپوليونات. وفى عام ١٧٩٩م، حين غزت فرنسا الشرق، عقد بيت صفقة سرية مع الباب العالى تضمن عدم المساس بمجال السيادة التركية لثمانى سنوات. ويشرح هذا كيف أتى الجنود الإنجليز إلى عكا للمحاربة فى صف الأتراك عام ١٧٩٩م.

ويعيدنا هذا إلى أمل إسرائيل، حيث إنه من يمكن أن يعلن نفسه راعيًا لمملكة يهودية مؤقتة إلا الجنرال بوناپارت؟ ومن الأمور المدهشة غير المعروفة عن ناپوليون هى أنه أول رئيس دولة يطالب باستعادة دولة إسرائيل على أرض فلسطين. وبالطبع فقد كان يخدم أغراضه الشخصية بلا هدف دينى يذكر. ولم يكن يهتم بالكتاب المقدس أو النبوءة، أو اليهودية أو المسيحية، فقد كان بلا دين، يرى كل الأديان سواء، وكان من السهل عليه التأسلم حين هبط بمصر لخدمة أغراضه. وكان إعلانه لليهود الذين أطلق

عليهم «الورثة الشرعيين لفلسطين» ما هو إلا خدعة عسكرية، كتلك السابقة عندما دعا العرب للثورة على نير الترك. ولكن فى كل دعواه لم يستطع نابوليون التخلص من نغمة التفاخر، ومد دعواه لليهود إلى وعد باستعادة مملكة أورشليم. وكان كل هذا محض تمثيل. فقد نادى «انهضوا يا بنى إسرائيل، أيها المنفيون انهضوا سريعًا، إنها اللحظة التى يمكن ألا تعود لآلاف السنين، للمطالبة باستعادة الحقوق المدنية بين شعوب العالم، تلك الحقوق التى- ويا للعار! - سحبت منكم لآلاف السنين، ولتطالبوا بتواجدكم السياسى كشعب بين الشعوب، وبحقكم الطبيعى غير المشروط فى عبادة الرب «يهوا» طبقًا لعقيدتكم، علنًا وللأبد». وطلب إليهم الانضمام إلى لوائه واعدًا إياهم بالأمان والمساندة من قبل الشعب الفرنسى لاستعادة أرضهم ولاستمرار سيادتهم عليها ضد أى قادم.

على أن هذا الإعلان لم يعثر عليه أبدًا، وإنما بقى محتواه غير معلوم حتى وجدت نسخة منه مترجمة إلى الألمانية، ووجدت طريقها إلى النور عام ١٩٤٠م فى أرشيف عائلة ڤينيسية ذات أصل يهودى كانت مع نابوليون فى حملته. وحتى حينه كانت فكرة وجود الإعلان معروفة فقط عن طريق ذكرها فى «مونيتور - Le Moniteur» عدد مايو ١٧٩٩م وهى السجل الفرنسى الرسمى.

وإذا أخذنا فى الاعتبار ظروف مغامرة نابوليون المستحيلة فى سوريا، فقد كان الإعلان غير ذى معنى، محض بطولة مسرحية.

ولكنها أرست نمطًا أدى إلى ذروة بطولية أخرى وإن كانت حقيقية فى عصرنا الحالى، حين صارت إسرائيل فعلاً «دولة بين الدول» ثانية. **فقد صار - بعد ناپوليون - من الأمور البديهية عند احتدام صراع القوى فى الشرق الأوسط، أن يقترح أحدهم استعادة إسرائيل، وأن هذا الداعى لا يحلم فقط بفرض نفوذه على منطقة استراتيچية حيوية، وإنما أيضًا بضم كل سلطة الثروة اليهودية العالمية إلى جانبه، ولم يبذل مجهودًا سياسيًا لصالح اليهود إلا كنتاج جانبى لصراع دول أخرى، مثلما حدث فى أيام الانتداب البريطانى فى فلسطين فى القرن العشرين. ولكن لا يمكننا إغفال دور ناپوليون فى هذا الشأن.**

وقد كان ناپوليون يسعى وراء حلم فرنسى قديم للسيطرة على تجارة الشرق منذ ١٦٧١م فى أيام لويس الرابع عشر، حين اهتم - بناءً على نصيحة «ليبنتز - Leibnitz» - الذى أراد أن يبعد عدوانه عن ألمانيا - بأن يعيد حفر القناة الموصلة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عبر برزخ السويس. وكتب ليبنتز «**يجب توجيه الضربة الحقيقية إلى مصر.. حيث الطريق الحقيقى إلى الهند.. وحيث تضمن السيادة الدائمة لفرنسا على تجارة الشرق**»، وتفوقت فعلاً فرنسا فى تجارة الشرق بينما أهملتها بريطانيا، لانصرافها إلى التجارة مع الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح.

ولكن فى القرن التالى طمح الفرنسيون أيضًا إلى الهند، مما أدى

إلى التناطح مع انجلترا، ومن ثم هزيمتهم فى حرب السبع سنوات ١٧٥٦ - ١٧٦٣م. وفى هذا النزاع خطط تشويسل لكى تسيطر فرنسا على مصر وجزيرة العرب لشق قناة إلى البحر الأحمر لكسب الهيمنة على سوريا وبلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا - Mesopotamia)، أى العراق، وفارس، وبذا تمحو انجلترا من الهند. وبعد قرن جاء الدور على بوناپارت.

ولكن حلمه كان مختلفًا ومتوهجًا، فحلم بنفسه إسكندرًا جديدًا يعيد بناء دولة الإسكندر من الإسكندرية إلى الهند أو حتى إلى بلاد التتار. ورأى فى مصر نقطة حصينة يمكن منها تدمير بريطانيا. ويحفر «قناة سويس» جديدة تحول البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية وتحول كل تجارة الهند والشرق إلى يد فرنسا، وكانت أوروپا أضيق من تكوين إمبراطورية، ولا يتسنى ذلك إلا فى الشرق باتساعه وثرائه وتعداده. وكان الشرق هو ميدان مجد الملحمة، حيث صنعت أمجاد لا يطويها التاريخ. ولم يكن ناپوليون متعطشًا فقط للتجارة، أو الثراء أو حتى السلطة، وإنما للخلود، خلود الإسكندر وقيصر. فقد قال لمؤرخه الأمين بوريان: «كل شىء هنا -يقصد أوروپا - ينسى، حتى مجدى ينحسر»، ولم يكن قد تم الثلاثين حينها، «إن هذا الركن من أوروپا صغير جدًا ولا يكفى للإمداد، يجب أن نذهب شرقًا. فقد اكتسب كل عظماء العالم شهرتهم هناك».

وفى الثلاثين من عمره - نفس عمر الإسكندر- رحل إلى مصر وفتح القاهرة، وحتى هزيمة أسطوله أمام نلسون، فقد تظاهر بأن شيئًا لم يحدث وبأنه ما زال بإمكانه هزيمة سوريا ثم تركيا وفارس والهند ثم يعود إلى أوروبا بإمبراطورية جديدة ليكون سيد العالم. وفى فبراير ١٧٩٩م أخذ العريش فى شبه جزيرة سيناء بين مصر وفلسطين وغزا فلسطين بعدها بعدة أيام، وأوقع يافا فى السابع من مارس ووصل إلى أسوار عكا فى الثامن عشر من مارس. وقال: «إن مصير الشرق رهنًا بأسوار عكا»، فإذا ما أوقعها، زحف على دمشق ثم حلب والقسطنطينية. ثم يطيح بالإمبراطورية التركية ويؤسس إمبراطورية جديدة عظيمة فى الشرق تخلده للأبد. ولم يستطع أبدًا التنازل عن هذا الحلم. وبعد ذلك بعشرين عامًا، حين كان يملى مذكراته بين أحجار سانت هيلينا قال مجددًا: «حين أستولى على عكا.. أكون قد وصلت إلى القسطنطينية والهند. وأكون قد غيرت وجه العالم».

وبأحلام العظمة هذه تتزاحم على مخيلته، عسكر ناپوليون فى رام الله على بعد ٢٥ ميلاً من أورشليم، وأصدر إعلانه لليهود. وماذا يمكن أن يكون أفضل من ذلك «أن يعيد رجل الأقدار بناء عرش داود بجرة قلم أو ضربة سيف، وكانت جاذبية المكان والزمان لا تقاوم، وأوحت الظروف لناپوليون بأنه سيدخل أورشليم بالفعل».

وضعف حصاره أمام دفاع المماليك المخيفين، مؤيدين بسرية بحرية

تحت قيادة السير سيدنى سميث. ولكن فى السادس عشر من أبريل حقق ناپوليون نصرًا عظيمًا على جبل طبرية حين دمر جيشًا تركيًا قادمًا من دمشق لنجدة عكا. وفى الحال رأى فى خياله عكا تستسلم وفلسطين تقع بالكامل بين يديه وهو يدخل أورشليم مظفرًا بالنصر. لقد كان شديد الثقة إلى أنه أرسل وفدًا رسميًا إلى فرنسا بتاريخ السابع عشر من أبريل (كما ورد فى مونيتور مايو ٢٢) قائلاً: «... **ناپوليون إعلانه .... ويدعو بموجبه كل يهود آسيا وأفريقيا أن يذهبوا تحت لوائه لإقامة دولة أورشليم القديمة**». وصدر الإعلان فعلاً فى التاسع عشر من أبريل كما لو كان من قاعدة أركان أورشليم، حيث كان يحلم أن يكون فى ذلك اليوم. ولكن ناپوليون لم يطأ يومًا أورشليم ولا حتى عكا؛ حيث إن عينه كانت معمية بآمال بالنصر والمجد والخلود، فلم ير فى موطئ قدميه - بنادق السير سيدنى سميث البريطانية. وقال بمرارة بعد انتهاء كل شىء: «لقد جعلنى هذا الرجل أخسر قدرى» فلم تسقط عكا، وكان قصف سميث وبحارته الذين جمعهم من كل حدب شديدًا، لا يقل عن دوى قصف ريتشارد(*) قبل ستة قرون. وابتلى الجيش الفرنسى بالطاعون والجوع كجيش فيليپ الرابع الذى طُرد سلفًا(**). وفى العشرين من مايو اعترف ناپوليون بالهزيمة وعاد أدراجه مع بقايا جيشه المثير للرثاء. وانتهى الحلم ولم تتحقق

(*) ريتشارد قلب الأسد الملك الإنجليزى فى الحروب الصليبية.

(**) فى الحروب الصليبية أيضًا.

الإمبراطورية. وكانت أمر هزائم ناپوليون ولم يستطع نسيانها حتى فى ذروة انتصاراته اللاحقة فى النمسا.

وربما يكون قد مزق النص الأصلى لوعده العظيم لليهود فى خضم مرارته، وبلا شك فقد حاول أن يغطى الموضوع كله لرفضه أن يذكّره شىء بالمغامرة المهينة. ولكن مغامرته فى الشرق كانت لها نتائج مهمة، فقد أثارت اهتمامًا واسع النطاق بالشرق، مما أدى لمحاولات قيمة للاستكشاف ولشعر رومانسى. وقد اكتشف حجر رشيد - وهو مفتاح ترجمة الهيروغليفية المصرية - بواسطة واحد من مجموعة العلماء والمهندسين الذين اصطحبهم ناپوليون مع جيشه لوضع خطة عمل إنشاء الإمبراطورية.

وفى عام ١٨٠٣م ذهب سيتزن إلى سوريا وأمضى عامين يتعلم لغة وأخلاق العرب؛ كى يتمكن من السفر كواحد من أبناء العرب على مدى أربعة أعوام لاحقة فى فلسطين وسيناء والقاهرة والبحر الأحمر، وحتى مكة متنكرًا كحاج. ولا تجد أبحاث سيتزن القيمة المتناثرة إلا فى الدوريات الألمانية أو كمخطوطات غير منشورة فى المتاحف الألمانية، باستثناء مقطوعات مترجمة إلى الإنجليزية ومنشورة على أنها تعليق مقتضب عن بحيرة طبرية التى تصل الأردن بالبحر الميت. ولكن شاتو بريان أصدر أفضل ما كتب وحقق أعلى نسبة مبيعات عام ١٨٠٦م بكتابه «جدول سفر من پاريس إلى أورشليم»، وقد تُرجم هذا الكتاب أيضًا إلى الإنجليزية وانتشر بين الإنجليز.

وفى ١٨١٠م رحلت السيدة هستر ستانهوب ابنة أخت وسكرتيرة ويليام بيت عن انجلترا إلى جبال لبنان حزنًا على وفاة خالها. وغير معلوم لماذا كان يتجه النبلاء شرقًا حين يعتصرهم الحزن. وقد أضفت (ليدى هستر) سمعة رومانسية سيئة على الشرق فى عصر الرومانسية. عاشت كنبية فى عزلة غامضة فى مملكة خاصة، وهبطت من القصور والحدائق التى يحرسها آلاف العبيد إلى وحشة الوحدة التى ماتت فيها بعد انتظارها لثلاثين عامًا بغلتها البيضاء لتدخل أورشليم مع المسيح، وسرعان ما أصبح من يفوته رؤيتها -من الزوار المهمين- لتقدم له الشرق، بمثابة من يزور القاهرة وتفوته رؤية الأهرام.

وأسست شركة فلسطين فى لندن عام ١٨٠٤م بهدف تعزيز بحث واستكشاف الأراضى المقدسة. ولكن بسبب خطر السفر إلى الأراضى المقدسة لم ينجز الكثير فى ذلك الوقت. واندمجت الشركة مع الجمعية الجغرافية الملكية فى ١٨٣٤م، ولكنها عادت إلى الظهور لاحقًا لجمع التبرعات لاستكشاف فلسطين، وكان لمؤسسة فلسطين أفضالها فى نشر خطابات «سيتزن»، والتى ألهمت رحلة أعظم مستكشفى القرن التاسع عشر لويس بركهاردت. ومثل سيتزن، أمضى سنوات يعد نفسه ليستطيع الحياة كبدوى من أبناء العرب ليستكشف وسط أفريقيا للجمعية الأفريقية، ولكنه مات قبل أن يستطيع أن يفعل ذلك، ولكن فى أثناء استعداده أمضى ست سنوات يتجول فى سوريا والجزيرة العربية ومكة. وكان تنكره بالغ الدقة، ودرايته بالقرآن وبأخلاق

الأهالى واسعـة، ونشرت مذكـراته بعد وفـاته عام ١٨٢٢م تحت اسم «رحلات إلى سـوريا والأراضى المقـدسة والجزيرة الـعربية»، وكـانت مذكراته أشـبه بمذكرات عالم آثار، وليس لكتـابه خطة تربط أجزاءه، وإنما حقـائق عن عادات العـرب وشخصـياتهم ومحـاصيلهم الحـالية وصروحـهم القديمة ونقوشـهم الحجرية وخططهم المعـمارية بناء على الأطلال، واكتشـافات جغرافـية وچيولوچية، ويجمع بيـنها من حين لآخر بأحداث الكتاب المقدس.

ولا يوجد - على النقيض لبركهاردت - مثل بايرون الذى جاء فى نفس الأعوام إلى المشرق ثم عاد ليشتهر فى وطنه، وليجعل من الشرق موضـة حيـن ألّف «رحلة حج الطفل هارولد - Child Harold's Pil-grimage» عـام ١٨١٢م، و«الجيـاور - The Giaour» عام ١٨١٣م، وبالمصادفـة تسببت رحلة بايرون فى إعادة فـتح البتراء عاصـمة سدوم الكتاب المقدس للتنقـيب. وكانت البتراء قد هجـرت لمئات السنين بعد أن كـانت مـزدهرة كـملتـقى لقـوافل التـجـارة بين الشـرق والخليج الفارسى، وذهب خريج من جامعة ترينتى وصديق لبايرون وهو ويليام بانكس بعد أن تحمس لإنجاز صديقه، إلى الشرق عام ١٨١٢م محملاً بخطابات توصية من بـايرون، وقرر أن يستكشفهـا ربما بدافع أساطير المدينة القديمة أو مدفوعًا بشائعات دخول بركهاردت إليها. وفى رحلة لاحقة عام ١٨١٦م أخذ معه ضابطين بحريين، الكابتن إيربى والكابتن مانجلـيز، وبالرغم من إصـرار المسئوليـن الأتراك على عدم التـعاون،

خاصة السلطان والباشا حاكم دمشق ومحافظ أورشليم الذين رفضوا تأمين طريقه، وحتى الدليل والجمال اللذين حذراه من تعطش البدو للدماء الإفرنجية لتتداوى بها نساؤهم، إلا أن مجموعة الإنجليز تقدمت بمفردها مطمئنة لعددها وقوتها، وشقوا طريقهم إلى واحدة من أعظم عواصم العالم القديم والتى صارت ذلك الوقت خاوية موحشة، ووادياً عميقاً مغطى بالأثل والتين البرى، ولا يملأ معابدها وقبورها وقصورها سوى صدى صيحات النسور ونعيق البوم، ولكنها كشفت كنوزها بعد ذلك.

وكان هؤلاء هم الأوائل. ولم تتوال وفود المستكشفين والحجاج على الأراضى المقدسة بالفعل إلا بعد عام ١٨٤٠م. وفى أثناء ذلك، كانت لحملة نابوليون نتائج أخرى، فقد أدى ظهور أوروبيين على أرض المعارك فى الشرق الأوسط إلى تفجر الأحداث فى المنطقة، وبلغ الانفجار ذروته عام ١٨٣٠م فى شكل أزمة أوروبية حول المسألة الشرقية، مما دفع بالقوى إلى دوامة الصراع لعشر سنوات، ودنا ذلك بانجلترا وفرنسا إلى مشارف الحرب، وأعاد الشرق إلى الأذهان بعد أن كان قد نُسى منذ الحملات الصليبية.

وكان لمحمد على دور كبير فى تلك الأزمة، وهو أول مسلم جدير بالذكر منذ صلاح الدين، وقد كان ألبانياً غير عادى، جعل من نفسه حاكماً لمصر ثم ادّعى أحقيته فى الخلافة، وقوض الدولة التركية بلا

مساعدة قبل أوان انـدثارها بمائة عام. ولا يهمنا أنه هز عواصم أوروبا بقدر ما يـهمنا أنه جر بريطانيا للأبد إلى الشـرق الأوسط، ووفر أول فرصة للمجهود الإنجليزى لإعادة غرس اليهود - وكان ذلك مصطنعًا- فى إسرائيل. وذكـر تجربة «اللورد شافتـسبرى - Lord Shaftesbury» مع بدايات الصـهـيـونيـة أنسب فى الفـصل التـالى، ولكن لا يمكن تقديمها إلا فى ظل ظروف قصة محمد على.

وكان الشغـل الشاغل هو «مَن يحتل الطريق إلى الهند؟» كـما قال «لورد پالمرستون - Lord Palmerston»، وقد ظهر محـمد على فجأة من حيث لا يدرى أحد، ليصير واليًا أقـوى من خليفته وعلى استعداد للإطاحة بحكمه ليعلن نفسه حاكمًا مستقلاً لدولة إسلامية تشمل مصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية، وسـاندت روسيا عدوها تركيا ضد هذا التحـدى الجسور لتفـرض الحماية على البـاب العالى وتضم الدردنيل لهـا. وكانت فـرنسـا ما زالت تتطـلع لحلم ناپوليـون بالسيـادة على الشرق، فـفرضت حمايتـها على محمـد على، النسخة الشرقـية من ناپوليـون والذى أوشك أن يحقق ما فـشل بطلهم فى تحقـيقـه. وكان على بريطانيـا أن توقف الأطـراف الثلاثـة كى لا يسـيطروا على هذه المنطقة الحيوية، وتبعًـا لپالمرستون فقد فضلت بريطانيا حـاكمًا عجوزًا واهنًا تركيًا على شاب مستقل ذى توجه فرنسى قابعًا فى طريق الهند.

ومما يثير الدهشة أنه لولا الإنجليز لانتهى محمد على قبل أن يبدأ،

ففى ١٧٩٨م أنقذه مركب السير سيدنى سميث من الغرق حين كان جنديًا يحارب ضد ناپوليون، ولكن أدميرال بريطانى آخر دمر حلم إمبراطورية محمد على بعد ذلك بأربعين عامًا عند أسوار عكا. وكان محمد على قد ظهر كرجل مصر القوى بعد تراجع ناپوليون، وفى ١٨٠٥م صار باشا مصر، ومد حكمه إلى السودان وشبه الجزيرة العربية بما فى ذلك مكة والمدينة، وفى ١٨٣٠م صار له جيش وأسطول مدربان على يد الضباط الفرنسيين ليتحدى السلطان، وفى طريقه الدامى صارت فلسطين مجددًا أرضًا للمعارك.

وفى الأول من نوفمبر عام ١٨٣١م عبر الجيش المصرى حدود سوريا وقابل الأسطول المصرى بقيادة إبراهيم بن محمد على فى يافا، وانطلقوا فورًا لفرض الحصار على عكا. وفى هذه المرة سقطت عكا، وكان قد أخذ غزة وأورشليم أيضًا، فمضى قدمًا إلى دمشق وحمص وحماة وحلب. وفى صيف ١٨٣٣م صار سيد سوريا وأصبح يهدد القسطنطينية، وارتعد السلطان فاستعان ببريطانيا عارضًا التحالف معها لحمايته. ولكن پالمرستون فكر فى إمكانية أن يصبح محمد على محميًا بريطانيًا، ومثل الغريق يتعلق بقشة، قبل السلطان مساعدة عدوه القديم روسيا، وأصبح الجنود الروس فى البلاط، وظهر الجنود الروس فى الشوارع، ودبر مهندسون روس التحصينات، فكتب السفير الإنجليزى لدى تركيا- لورد پونسونبى- إلى بريطانيا: «من الواضح أن تركيا قد صارت ولاية خاضعة لروسيا»، والأسوأ هو: علامَ اتفقت تركيا مع

روسيا بشأن المضـايق؟، حتى بات سفيرا فرنسا وانجلتـرا يتوقعان رؤية أسطول روسيـا الكريه من النافـذة، ولم يكن الخوف من روسـيا على غير وجه حق، حـيث كانت اتفاقية روسيا وتركيـا السرية تتضمن بندًا ينص على أن تغلق تركيا الدردنيل فى وجه أى سفينة حربية أخرى بناءً على طلب روسيا.

وكان هجـوم پالمرستون شديدًا، واتفق پونـسونبى على أنه من الخطأ الاعـتقـاد بأن روسيـا يمكن أن تكون معـتدلة فى هذه الأمـور، أو أن تتوقف عن استغلال تركيا، وأصبح قمع تقدم روسيا هو الشغل الشاغل الذى صار على وشك جلب «الحرب الكريمينية - The Crimean War» بعد ذلك بعشرين عامًا، وضغطت انجلترا لتحـشد قوة مجمعة لاستبدال التدخل الـروسى بقوى متـحدة تحل الأزمـة المصرية التـركيـة برد فعل جماعى، وتسد الطريق على أى غارات فردية بأى ثمن. وأُوقف محمد على بشكل مـؤقت، ولكنه عـاود المحاولة فى ١٨٣٨م ومـحا الجـيش التركى الذى وقف أمامـه فى سوريا، واستسلم الأسطول التـركى أمامه فى الإسكندرية، ومـات السلطان الـعجـوز خـزيًا فى القـسطنطينيـة. وأذاعت فرنسا انتـصارات الباشا، وبدا كـما لو كان قريبًا سـيكون سيد إمبـراطورية تضاهى إمـبراطورية صـلاح الدين، ولكن القيـصر تدخل لإفساد الأمـر، خاصة وأن ذلك كان يوسع الهوة بين بريطانيـا وفرنسا، ولذا فقـد تضامن مع خطة پالمرستـون لرد الفعل الموحد مع بروسـيا(*)

(*) جزء من ألمانيا القديمة.

والنمسا، حتى وإن تنازل عن مزاياه فى المضايق. وبينما كانت فرنسا تحتفل بانتصارات محمد على، كانت القوى الأربع تتحالف سرًا لمناصرة تركيا ولإجبار محمد علىّ على الاكتفاء بمصر وجنوب سوريا طوال حياته، واغتاظت فرنسا حتى أوشكت على إعلان الحرب، إلا أن الثورة قامت ضد الطاغية إبراهيم فى سوريا. وتشكل أسطول إنجليزى يؤيد الثورة، واقتنص بيروت، وتركت سرية برية بقيادة السير تشارلز نابير لاقتناص صيد، ثم وجهت مدافعها صوب أسوار عكا الشهيرة وهُزم إبراهيم دونما حصار، وتهاوت إمبراطورية والده كبيت من أوراق اللعب . . وانتهى الأمر باستهزاء بالمرستون بفرنسا.

وكما راهن بالمرستون فإن فرنسا ولويس فيليب لم يكونا مستعدين لخوض حرب لأجل المسألة الشرقية، أو السراب الذى طالما أفلت من فرنسا. ونجح فى استعادة سوريا وشبه الجزيرة العربية للباب العالى وتحجيم محمد على المسن الذى ما لبث أن جُن ومات. وفى هذه الظروف حلت الأزمة فى ظل تعاهد خمس قوى أصبحت فرنسا إحداها. ووقعت المعاهدة فى لندن عام ١٨٤١م، وتم الحفاظ على الإمبراطورية التركية المتهالكة بشكل مؤقت، وأنقذت من براثن النسور، وكان انتصارًا لا تشوبه شائبة لبالمرستون، وفتح طريق لبريطانيا إلى السويس وأورشليم.

***